



عاصمان من الثورة حول سوريا إلى أكبر مستنقع في العالم. في دمها ووحلاها يتعارك الإيرانيون، وال العراقيون، والروس، وحزب الله، وجبهة النصرة، والأحرار، وأتباع «القاعدة»، وحزب العمال الكردستاني، والجبهة الشعبية – أحمد جبريل، و«الجيش الحر» بألويته وكتائبها، وال سعودية، و قطر وتركيا، والأردن، والآن على وشك أن تدخل الحلبة بريطانيا وفرنسا. في سوريا الآن حرب إقليمية كبرى.

بدأت بمظاهرات احتجاجا على قمع أطفال مثل هذا الأسبوع، قبل عامين، ثم انتشرت فكرة الرغبة في التخلص من حياة الذل والقمع اللذين تمارسهما الدولة البوليسية. انتشرت كالفطر، وهزت أنحاء سوريا الاحتجاجات الداعية لـإسقاط آخر عتاة الديكتاتوريين العرب، ومنذ ذلك الحين الثمن لا يبارى، مائة ألف قتيل، و مليون سوري عبروا الحدود لاجئين، و ملايين من المشردين عالقون في الداخل.

سكان المدن فروا للريف، وأهل الريف فروا للكهوف والمزارع، والأقليات تنكمش إلى مناطقها، وال الحرب مستمرة. ورغم هول المأساة وعمقها، لا أحد يريد أن يعود التاريخ إلى ما وراء عامين، أمر تتفق عليه غالبية الشعب السوري.. لا عودة للعيش تحت حكم بشار الأسد. سيسقط مهما عظم الثمن، هذا لسان حال السوريين، مع أن المستقبل صار كابوسا بقدر ما كان الماضي مخيما.

حتى الروس يدركون الآن أن حكم الأسد محكوم عليه بالسقوط، فقد وصلت المعارضة المسلحة إلى مناطق نفوذه العميقية. والروس لم يعودوا يسعون للبقاء على النظام، بل يضغطون من أجل حيادة حل سياسي يحافظ على مصالحهم بمنع حلفائهم في النظام الحالي مكانة في سوريا الجديدة، وهذا مطلب أصبح مستحيل التحقيق. ومن كبار المتورطين، حزب الله، بكل قواته يخوض حربا ضد الشعب السوري هي الأضخم في تاريخ الحزب الذي عمل دائمًا مخلبا للنظام الإيراني.

بخمسين ألف مقاتل يشارك في قمع ثورة الشعب السوري، أي يقاتل بأكابر مما قاتل به الإسرائيليين في حربه معهم ثلاثة سنة، ويتورطه عبر الحدود يهدد بنقل الحرب إلى لبنان أيضاً. شمال العراق وغربه مهددان بالتفكك، بسبب تورط رئيس الوزراء نوري المالكي، هو الآخر، في حرب سوريا إلى جانب نظام الأسد.

على التراب السوري تدور حروب متعددة. وليس من قبل المبالغة عندما حذر مسؤولون إيرانيون علانية بأن سقوط الأسد لا يقل خطراً عليهم من سقوط طهران نفسها!

كانت سوريا من ثورة إلى حرب إقليمية كبرى، وعلى وشك أن تكون محل تنازع دولي بإعلان بريطانيا وفرنسا استعدادهما لتسليح المعارضة السورية، حتى لو رفض الاتحاد الأوروبي رفع الحظر الذي فرضه ذاتياً على المتحاربين من الطرفين. ما الذي يمكن لنا أن نفعله، عدا عن العمل الإغاثي الضخم المطلوب لملايين السوريين المشردين؟

في ذكرى مرور العام الثاني على الثورة لم يعد هناك شك في قدرة الثوار في **إسقاط النظام**، فهم يزحفون ببطء كالسلحفاة، لكن بثبات ونجاح، وسيصلون إلى مبتغاهما، رغم تكالب الأعداء عليهم. الأهم، في نظري، السعي بإصرار لجمع السوريين في منظومة سياسية واحدة من خلالها يمكن لهم اختيار النظام والقيادات التي يريدونها.

الدور العربي هنا، جمع المعارضة لتحمل المسؤولية والقبول بنظام جامع يشمل كل القوى على الأرض، مدنية وعسكرية، من كل الطوائف والمناطق. في معظم الدول المنكوبة كانت الرعاية الخارجية تمنع الشرعية، دولية أو إقليمية، للنظام البديل بما يعين على تفادي الانقسام وال الحرب الأهلية.

هذا ما حدث في مطلع التسعينيات للكويتيين في الخارج، بعد احتلال صدام لبلدهم، ومحاولته طمس شرعية الحكم. كذلك، تم ترتيبه للعراق بعد إسقاط صدام، بإجماع كل الأطراف والقوى المختلفة المحافظة على وحدة البلاد واستقلالها. وهناك أزمات فشل المجتمع الدولي فيها.

بسبب الاحتراق الداخلي في يوغوسلافيا شرعت الأمم المتحدة في تقسيمها، لأنها أصلاً شكلت دولة من سبع دويلات بعد الحرب العالمية الثانية، لينفرط عقد الاتحاد في التسعينيات فتستقل خمسة أقاليم ولا يتبقى منها سوى صربيا والجبل الأسود.

ومع أن سوريا تاريخياً بلد متربط فإنها هي الأخرى، قد لا تستمر هكذا إذا فشلت المعارضة في تبني مشروع يجمعها. التحدي الذي يواجه الشعب السوري لم يعد إسقاط الأسد، بل الحفاظ على الدولة كياناً موحداً مستقراً، وتجنب الوقوع في فخ الحرب الأهلية التي يبشر بها نظام الأسد وحلفاؤه.

الشرق الأوسط

المصادر: